الذكـــــر
وعلاقته بالنور الإلهى

كتبـــه

محمد بيومى

مكتبة الإيمان المنصورة

ت ٢٢٥٧٨٨٢

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

وبعد،

فقد عقد الإمام ابن القيم - رحمه الله - فصلا رائعا فى مقدمة كتابه [الوابل الصيب من الكلم الطيب] تحدث فيه عن فوائد ذكر الله عز وجل، وقد ذكر - رحمه الله - أكثر من سبعين فائدة للذكر وأثناء قراءتى لهذه الفوائد وهى جميعها

من أجمل الفوائد، غير أنى وقفت أمام فائدة جديرة بالتدبر والتأمل وهى الفائدة (السادسة والثلاثون) فأردت إبرازها فى هذه الرسالة وتتميما لهذه الفائدة فقد قمت بتخريج آياتها وأحاديثها، والتعليق على بعض كلماتها.

ولما كانت هذه الفائدة تربط بين الذكر والنور الإلهى فقد وضعت لها هذا العنوان:

الذكر وعلاقته بالنور الإلهى

قال ابن القيم - رحمه الله وتعالى - : الذكر نور للذاكر فى الدنيا، ونور له

فى قبره، ونور لـه فى معاده يسعى بين يديه على الصراط، فما استنارت القلوب والقبـور بمثـل ذكـر الله تعـالى، قـال الله تعالى:**{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَـهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُـهُ فِـي الظُّلُمَـاتِ لَـيْسَ بِخَـارِجٍ مِّنْهَـا}** [الأنعام: ١٢٢].

فـالأول هـو المـؤمن اسـتنار بالإيمـان بـالله ومحبتـه ومعرفتـه وذكـره، والآخـر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن والفلاح

كل الفلاح فى النور، والشقاء كل الشقاء فى فواته.

ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، حتى يقول: «**واجعلنى نورا**» [متفق عليه].

فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة، وأن

يجعله محيطا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورا فدين الله عز وجل نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه...

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه. ذكره عثمان الدارمى وقد قال

تعالى:{وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [الزمر: ٦٩] فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما، وحجابه تبارك وتعالى النور.

قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه، عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل،**

حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» [رواه مسلم] ثم قرأ:**{أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا}** [النحل: ٨].

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره. ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ساخ الجبل فى الأرض وتدكدك ولم يقم لربه تبارك وتعالى.

وهذا معنى قول ابن عباس فى قوله

سبحانه:{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣] قال: ذلك الله عز وجل، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء. وهذا من بديع فهمه رضى الله تعالى عنه ودقيق فطنته، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه التأويل، فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له، وإن رأته فالإدراك أمر وراء الرؤية، وهذه الشمس - ولله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كما هى عليه ولا قريبا من ذلك،

ولذلك قال ابن عباس لمن سأله وأورد عليه:**{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}** فقال: ألست ترى السماء ؟ قال: بلى قال: أفتدركها ؟ قال: لا. قال: فالله تعالى أعظم وأجل.

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون فقال سبحانه وتعالى:**{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ**

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٣٥] قال أبى بن كعب: مثل نوره فى قلب المسلم.

وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله فى قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم

وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر. فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا فمنهم من نوره كالشمس وآخر كالقمر وآخر كالنجوم وآخر كالسراج وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضئ مرة ويطفئ مرة أخرى، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا فأعطى على الجسر

بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا بل كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة وهى الكوة فى الحائط فهى مثل الصدر، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج وحتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه وهى مثل القلب، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت

أوصافا هى فى قلب المؤمن وهى الصفاء والرقة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها، :**{أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ}** [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى:**{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ**

مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}** [التوبة: ٧٣] وفى أثر (القلوب آنية الله تعالى فى أرضه، فأحبها إليه وأرقها وأصلبها وأصفاها) وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان فى طرفى نقيض:

أحدهما: قلب حجرى قاس لا رحمة ولا إحسان ولا بر، ولا له صفاء يرى به الحق، بل هو جبار جاهل: لا علم له بالحق، ولا رحمة للخلق.

وبإزائه قلب ضعيف مائى لا قوة فيه ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس له قوة حفظ تلك الصور ولا قوة التأثير فى غيره، وكل ما خالطه أثر فيه من قوى وضعيف، وطيب خبيث.

وفى الزجاجة مصباح، وهو النور الذى فى الفتيلة، وهى حاملته.

ولذلك النور مادة، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من

الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء، بلا نار، فهذه مادة نور المصباح.

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن هو من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة وأبعدها من الانحراف، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية ولا انحراف اليهودية، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شيء، فهذه مادة مصباح فى قلب

المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار فاشتدت بها اضاءته وقويت مادة ضوء النار به، كان ذلك نورا على نور وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحى فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحى إلى نور

الفطـرة، نـور علـى نـور، فيكـاد ينطـق بـالحق وإن لـم يسـمع فيـه أثـر، ثـم يسـمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته فيكون نورا على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً ثم يسمع الأثـر جـاء بـه مفصـلا، فينشـأ إيمانـه عـن شـهادة الوحى والفطرة.

فليتأمـل اللبيـب هـذه الآيـة العظيمـة، ومطابقتهـا لهـذه المعـانى الشـريفة فـذكر سـبحانه وتعـالى نـوره فـى السـماوات والأرض، ونـوره فـى قلـوب عبـاده

المؤمنين، النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى، فهما نوران عظيمان أحدهما أعظم من الآخر، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمى ولا غيره، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون البتة، فكذلك أمة فقد فيها نور

الـوحى والإيمـان ميتـة وقلـب منـه هـذا النور ميت ولابد، لا حياة لـه البتـة، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه.

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور كما فى قولـه عز وجل:**{أَوَ مَن كَـانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَـاهُ وَجَعَلْنَـا لَـهُ نُـورًا يَمْشِـي بِـهِ فِـي النَّـاسِ كَمَـن مَّثَلُـهُ فِـي الظُّلُمَـاتِ لَـيْسَ بِخَـارِجٍ مِّنْهَـا}** [الأنعام: ١٢٢] وكذلك قولـه عز وجل:**{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ رُوحًـا مِّنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلاَ الإِيمَـانُ وَلَكِـن**

جَعَلْنَـاهُ نُـورًا نَّهْـدِي بـهِ مَـنْ نَّشَـاء مِـنْ عِبَادِنَا} [الشورى: ٥٢].

وقـد قيـل إن الضـمير فـى (جعلنـاه) عائد إلى الأمر، وقيل إلى الكتاب، وقيل إلـى الإيمـان، والصـواب أنـه عائـد إلـى الـروح أى جعلنـا ذلـك الـروح الـذى أوحينـاه إليـك نـورا، فسـماه روحـا لمـا يحصـل بـه من الحيـاة، وجعلـه نـورا لمـا يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الـروح وجـدت الإضـاءة والاسـتنارة،

وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل هذا الروح فهو ميت مظلم كما أن المائى، والنارى. لما يحصل بالماء من الحياة وبالنار من الإشراق والنور.

كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى:**{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}** [البقرة: ١٧].

وقال:**{ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ}** ولم يقل

بنـــارهم لأن النـــار فيهـــا الإحـــراق والإشـراق، فـذهب بمـا فيـه الإضـاءة والإشـراق، وأبقـى علـيهم مـا فيـه الأذى والإحراق.

وكـذلك حـال المنـافقين: ذهـب نـور إيمانهم بالنفاق، وبقى فى قلوبهم حرارة الكفـر والشـكوك والشـبهات تغلـى فـى قلوبهم، قلوبهم قد صليت بحرها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على الأفئدة. فهذا مثل من لم يصحبه

نور الإيمان فى الدنيا بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به. وهو حال المنافق عرف ثم أنكر، وأقر ثم حجد، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار:**{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ}** [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** [البقرة: ١٧١].

وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم وصيامهم معهم وسماعهم القرآن ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره قد شاهدوا الضوء ورأوا النور عيانا.

ولهذا قال تعالى فى حقهم: **{فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [البقرة: ١٨] إليه، لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به

واستناروا فهم لا يرجعون إليه.

وقال تعالى فى حق الكفار: **{فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** لأنهم لم يعقلوا الإسلام ولا دخلوا فيه ولا استناروا به ولا يزالون فى ظلمات الكفر، صم بكم عمى، فسبحان من جعل كلامه لأدواء (١) الصدور شافيا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديا، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا، وإلى طريق الرشاد هاديا. لقد أسمع منادى الإيمان لو صادف آذانا

(١) أدواء: جمع داء.

واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوبا من غيها خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغى وشهادة الباطل فلم تصغ بعده إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها الأسنة والسهام ، ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة وأسر الهوى والشهوة:

"وما لجرح بميت إيلام".

والمثل الثانى قوله تعالى:**{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}** [البقرة: ١٩] الصيب المطر الذى يصوب من السماء أى ينزل منها بسرعة وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان، فأدرك المؤمنون ذلك منه، وعلموا ما يحصل به من الحياة

التى لا نظر لها، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كجهاد الأعداء والصبر على الأمر أو الأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها فهى كالظلمات والرعد والبرق، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة

والرعد والبرق، بل يستأنس لذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب.

وأما المنافق فإنه عمى قلبه لم يجاوز بصره الظلمة ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر، ورعدا عظيما وظلمة، فاستوحش من ذلك وخاف منه، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد، وهاله ذلك البرق وشدة لمعانه وعظم نوره فهو خائف أن يختطف معه بصره، لأن بصره أضعف من أن يثبت

معه، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف، ويرى ذلك البرق الخاطف، فإن أضاء ما بين يديه مشىء فى ضوئه، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدرى أين يذهب، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات وحياته هو فى نفسه، بل لا يدرك إلا رعدا وبرقا وظلمة ولا شعور له بما وراء ذلك، فالوحشة لازمة له، والرعب والفزع لا يفارقه، وأما من أنس بالصيب وعلم أنه لابد فيه

من رعد وبرق وظلمة بسب الغيم، أستأنس بذلك ولم يستوحش منه، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب.

فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل ﷺ من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليحي به القلوب والوجود أجمع، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء، حكمة بالغة وأسباب منتظمة نظمها

العزيز الحكيم. فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده وبروقه فقط، لم يعلم ما وراءه فاستوحش بما أنس المؤمنين، وارتاب بما اطمأن به العالمون، وشك فيما يتقيه المبصرون العارفون، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش نحو الظهيرة، وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد، وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد.

وإذا صادف هذه العقول والأسماع

والأبصار شبهات شيطانية وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، حالت فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع فيها مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دواوينها، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم والمحامين عن حوزتهم والمقاتلين تحت ألويتهم والمكثرين لسوادهم. ولعموم البلية هم وضرر القلوب بكلامهم هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك

وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم، ولم يزل عز وجل يقول: «**ومنهم.. ومنهم.. ومنهم**»[١] حتى انكشف أمرهم، وبانت حقائقهم وظهرت أسرارهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات، وفى أوصاف الكفار آيتين،

(١) يشير ابن القيم إلى سورة التوبة وهى السورة التى فضحت المنافقين.

وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم، فإنهم من الجلدة، مظهرون الموافقة والمناصرة، بخلاف الكافر الذى قد تأبد بالعداوة وأظهر السريرة ودعا لك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته.

ونظير هذين المثلين المذكورين فى سورة الرعد فى قوله تعالى:**{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}** [الرعد: ١٧]

فهذا هو المثل المائى شبه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب بالماء الذى أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها. ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل فيحمله السيل فيطفوا على وجه الماء

فيقذف الوادى ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله تعالى به الأرض فيحي به البلاد والعباد والشجر والدواب، والغثاء يذهب جفاء يجفى ويطرح على شفير الوادى.

فكذلك العلم والإيمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتمله فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة يطفو فى أعلاها، واستقر العلم والإيمان

والهدى فى جذر القلب فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ويزول شيئا فشيئا حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس فيشربون ويسقون ويمرعون (١).

وفى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «**مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،**

(١) أى يتخذون منها المرعى.

وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» [متفق عليه] فجعل النبى ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات.

(الطبقة الأولى): ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملا ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات عليهم وسلامه - حقا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت فى نفسها وزكا الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة... ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم فى الدين والبصر بالتأويل، ففجرت من

النصوص أنهار العلوم واستنطبت منها كنوزها ورزقت فيها فهما خاصا، كما قال أمير المؤمنين على أبن أبى طالب - وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبدا فى كتابه: [رواه البخارى].

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن:

(الطبقة الثانية): فإنها حفظت

النصوص وكان همها حفظها وضبطها فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها وبذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ووردها كل بحسبه:**{قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ}** [البقرة: ٦٠] وهؤلاء هم الذين قال لهم فيهم النبى ﷺ: **«نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**

[رواه البخارى].

وهذا عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن مقدار ما سمع من النبى ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثا الذى يقول فيه " سمعت، ورأيت " وسمع الكثير من الصحابة وبورك فى فهمه والاستباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها. قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار. وهى بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر وفقهه واستنباطه وفهمه

فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس. وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع فبدر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم: **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** [الجمعة: ٤] وهكذا الناس بعده قسمان:

(قسم حفاظ): معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا. ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما

حفظـــوه. وقســـم معتنـــون بالاســـتنباط واســـتخراج الأحكـــام مـــن النصـــوص، والتفقه فيها. فالأول كأبى زرعة وأبى حاتم وابن دارة. وقبلهم كبندار محمد بن بشـــار وعمـــرو الناقـــد وعبـــد الـــرازق، وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر وسعيد بن أبـــى عروبـــة وغيـــرهم مـــن أهـــل الحفـــظ والاتقان والضبط لما سمعوه، من غير استنباط وتصرف واستخراج من ألفاظ النصوص.

(والقســـم الثـــانى): كمالـــك والليـــث

وسفيان وابن المبارك والشافعى والأوزاعى وإسحاق والإمام أحمد بن حنبل وأبى داود ومحمد بن نصر المروزى - وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية - فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأسا.

وأما (الطائفة الثالثة): وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا - فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا

دراية ولا رعاية.

(فالطبقة الأولى) أهل رواية ورعاية ودراية

(والطبقة الثانية) أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

(والطبقة الثالثة) الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية:**{إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}** [الفرقان: ٤٤]، فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن

ترقت همته كان همه - مع ذلك - لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه فى الرياسة والانتصار للنفس...

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلا ثانيا وهو المثل النارى فقال:**{وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ}** [الرعد: ١٧] وهو الحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذى ينفع

الناس.

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا فقال: **{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}** [الرعد: ٢٠].

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة

حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحى والجسمى بالنور، وهو مادة الحياة كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه، وكما به حياة القلب فيه انفساحه وانشراحه وسعته، كما فى الترمذى [١] عن النبى ﷺ: «**إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح**» قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «**الانابة إلى دار الخلود والتجافى**

(١) الترمذى هو الحكيم الترمذى وليس الترمذى صاحب السنن والحديث ضعفه الألبانى فى " الضعيفة " (٩٦٥).

عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب، وهو نور ومصدر عن النور. ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور.

كما فى صحيح مسلم عن عائشة

رضى الله عنها وعن النبى ﷺ قال: **«خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»** فلما كانت مادة الملائكة من نور كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدى الله عز وجل، ثم يأمر أن يكتب

كتابه فى أهل عليين، فلما كانت هذه الروح روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ولا تصعد إلى الله تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها، لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هى منه، وهذا منه مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه الإمام أحمد وأبو

عوانة الإسفرائينى فى صحيحه والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح.

والمقصود أن عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه. وفى المسند من حديث عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ: «**إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصاب من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل. فلذلك أقول: جف القلم على علم الله تعالى**» [رواه

أحمد ٢ / ١٩٧ بسند صحيح]. وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته، والله تعالى الموفق.

وهذا النور الذى ألقاه عليهم سبحانه وتعالى هو الذى أحياهم وهداهم، فأصبت الفطرة منه حظها. ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله أكمله لهم وأتمه بالروح الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام والنور الذى أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق

الذى حصل لها يوم إلقاء النور، فاضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة، نور على نور، فأشرقت منه القلوب، واستنارت به الوجوه، وحيت به الأرواح، وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعا واختيارا، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها. ثم دلها ذلك النور على نور آخر هو أعظم منه وأجل وهو نور الصفات العليا الذى يضمحل فيه كل نور سواه، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات

إلـى العـين ذلـك لاسـتيلاء اليقـين عليهـا وانكشاف حقائق الإيمان لها، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا وإلى استوائه عليه كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحي، ويقضى وينفذ ويعز ويذل ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتى بأخرى، والرسل من الملائكة عليهم

الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كما شاء فى الوقت الذى يشاء على الوجه الذى يشاء، من غير زيادة ولا نقصان لا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات وأقطارها، وفى الأرض وما عليها وما تحتها، وفى البحار والجو، وفى سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل

شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ووسعه سمعه الأصوات فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه. بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح ذوى الحاجات وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى

من السر، فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بعد فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا، وله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شىء ووسعت رحمته كل شىء وسعت نعمته إلى كل حى:

{يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]

يغفر ذنبا، ويفرج هما، ويكشف كربا، ويجبر كسيرا، ويغنى فقيرا، ويعلم جاهلا، ويهدى ضالا، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانيا، ويشبع جائعا، ويكسو عاريا، ويشفى مريضا، ويعافى مبتل، ويقبل تائبا ويجزى محسنا، وينصر مظلوما ويقصم جبارا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن من روعة، ويرفع أقواما ويضع آخرين، لا

ينـــام ولا ينبغـــى لـــه أن ينـــام، يخفـــض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور: لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ويمينه ملأى لا تغيضها [١] نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما فى يمينه.

قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة

(١) لا تغيضها: غاض الماء أى جف.. أى تعوزها وتفقرها النفقة.

الأمور معقودة بقضائه وقدره. الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، يقبض سماواته كلها بيده، الكريمة والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يسألها أن يعطيها. لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك فى

ملكه شيئا، ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام، والبحر - وراءه سبعة أبحر تمده من بعده - مداد، فكتب

بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفذ المداد ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى، وكيف تفنى كلماته عز وجل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟

هو الأول الذى ليس قبله شىء، والآخر الذى ليس بعده شىء، والظاهر الذى ليس دونه شىء، والباطن الذى ليس فوقه شىء، تبارك وتعالى أحق من

ذكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأولى من شكر، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم. حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حق واجب

كلا ولا سعى لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا

فبفضله، وهو الكريم الواسع

وهو الملك لا شريك لـه، والفرد فلا ند له، والغنى فلا ظهير لـه والصمد فلا ولد لـه، ولا صاحبة، والعلى فلا شبيه لـه ولا سمى لـه، كل شىء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته. يطاع فيشكر، ويعصى فيتجاوز ويغفر. كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

أقرب شهيد، وأدنى حفيظ. حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة. عطاؤه كلام، وعذابه كلام: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [يس: ٨٢].

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات اضمحل عندها كل نور ووراء هذا ما لا يخطر بالبال ولا تناله عبارة. والمقصود أن الذكر ينور القلب والوجه

والأعضاء، وهو نور العبد فى دنياه وفى البرزخ وفى القيامة.

وعلى حسب نور الإيمان فى قلب العبد تخرج أعماله وأقواله ولها نور وبرهان، حتى أن المؤمن من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل، وهكذا يكون نور وجهه فى القيامة، والله تعالى المستعان وعليه الاتكال.

* * * * * * * *